قافلة الزيت

ربيع الثاني ١٣٨٨ يونيه-يوليه ١٩٦٨

جرش

تُرى النور من جديد

الشارع الرئيسي . أول الآثار التي يقع عليها نظر المسافر بين دمشق وعمان ، وهو محاط بحوالى ١٠٠ عمود مشاد بعضها على الطراز الأيوني ، والبعض الآخر على الطراز الكورنثيني .

تصوير : توم وولترز

يطلق الغربيون صفة القدم على أي بنيان مضى على قيامه زهاء ٥٠٠ سنة ، بينما يختلف هذا المقياس لدى سكان الشرق الأوسط ، الذين لا يطلقون صفة القدم على أي من المعالم الأثرية الا اذا جاوز عمره الألف عام . وعلى هذا الأساس ، فان مدينة جرش ، الواقعة في الشمال الغربي من المملكة الأردنية الهاشمية ، وعلى منتصف الطريق التي تربط بين العاصمة الأردنية « عمان » ومدينة « الرمثا » قرب الحدود السورية ، تعتبر مدينة قديمة نسبيا باعتبار مقاييس الشرق الأوسط ، اذ أعاد الرومان بناءها حوالي عام ٦٥ قبل الميلاد ، وفي حوالي عام ١١٣١م دمرت تدميرا كاملا .

ومع أن تاريخ بناء مدينة جرش أو « جراسا » ، كما كانت معروفة في الأصل ، يرجع الى حوالي ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ سنة ، الا أن أهميتها التاريخية لم تبرز الا في القرن الثالث أو الرابع قبل الميلاد . وتشير الروايات والمصادر التاريخية الى أن « بطليموس » الثاني ، أحد ملوك مصر القدماء ، أسس مدينة في تلك المنطقة ، بينما يذهب آخرون الى أن الاسكندر الكبير ، أو أحد قواده ، هو الذي أمر ببناء مدينة جرش . ومما تذكره الروايات أن هذه المدينة الأثرية كانت في حالة جيدة في الوقت الذي جاء الرومان اليها . حيث كانت مركزا مهما على طريق القوافل التجارية الواردة من جنوب الجزيرة العربية الى دمشق عبر مدينة البتراء جنوبي الأردن . بيد أنها لم ترق لفاتحيها الجدد ، الذين بادروا الى توسعتها وتجميل معالمها على أيدي أمهر البنائين والمهندسين في العالم .

ولما كانت جرش تعتبر من بين المدن المهمة في مقاطعة سوريا آنذاك ، فقد كان طبيعيا أن يطرأ تطور سريع على ثروتها ، ومواردها ، ويمتد ظل نفوذها ، كما أن موقعها الاستراتيجي جعلها تعتمد الى مدى بعيد في اقتصادها على قوة الدولة وازدهارها . لذلك ، فعندما بدأت الامبراطورية الرومانية تتعرض لعوامل الاضمحلال وأسباب الانحطاط في نهاية القرن الثاني الميلادي ، كان لا بد لجرش من أن تتأثر بنتائج هذا الانحطاط ، لا سيما وأن وسائل النقل البحري أخذت تضارب وسائل النقل البري من حيث السرعة وقلة التكاليف . ولكن جرش ، على الرغم من الظروف القاسية التي مرت بها على تعاقب

حجارة منحوتة تحمل بعض النقوش الرومانية الأثرية ، وهي تشكل جزءا من احدى الواجهات .

واجهة المدخل الرئيسي المؤدي الى المسرح الجنوبي .

الأجيال ، استطاعت أن تحتفظ بمكانتها ونشاطها كمدينة استراتيجية مدة طويلة من الزمن . وفي سنة (٦١٤) أي بعد حوالي ٥٠ سنة من انتهاء حكم الامبراطور البيزنطي « يوسطينيانوس » الأول ، تعرضت جرش لغزو فارسي ، أسفر عن تدمير أجزاء كبيرة منها . وبعد حوالي ٢٠ سنة من هذا التاريخ ، هاجمها العرب ، واحتلوها . ثم تعرضت بعد ذلك لسلسلة من الهزات الأرضية العنيفة . ومع كل ذلك ، وبالرغم من تدمير معظم أجزائها وفقدان ثلثي سكانها ، بقيت جرش مدينة عامرة تنعم بأسباب القوة والحياة .

غير أن معالم هذه المدينة لم يشأ لها البقاء طويلا ، ففي الفترة الواقعة بين عامي ١١١٨ و ١١٣١م تعرضت جرش لضربة قاضية أثر حملة قام بها « بولدوين » الثاني ، أحد ملوك الصليبيين ودمرها تدميرا تاما ، حتى أصبح العرب يضربون المثل بخرابها ، وما يزالون ، فيقولون : « مثل خرائب جرش » . وهكذا دفنت هذه المدينة الأثرية تحت الرمال التي كانت تسفوها رياح الصحراء يوما بعد يوم لأكثر من ٨٠٠ سنة .

لقد كانت بعض خرائب جرش ماثلة للعيان عندما مر بعض الرحالة الأوربيين ، ومن بينهم عالم الآثار السويسري ، « بوركهاردت » ، مكتشف البتراء ، بتلك المنطقة في بداية القرن التاسع عشر . ولكن المدينة بقيت على حالها حتى سنة ١٩٢٠ ، عندما بدأت حكومة شرقي الأردن آنذاك بعمليات الحفر والتنقيب عن آثارها التاريخية ، وترميم بعض معالمها التي يعتبرها الخبراء وعلماء الآثار من أروع المعالم التي شهدتها عصور الامبراطورية الرومانية في تلك المنطقة .

هذا وتعتبر جرش الجديدة اليوم ، من أماكن السياحة البارزة في الأردن ، وهي من أسهل المدن الأردنية وصولا ، اذ تقع على الطريق الرئيسية بين دمشق وعمان ، مما يجعل المسافرين على هذا الطريق يتمتعون برؤية أروع آثارها التاريخية قيمة ، والممثلة في قاعة الشعب الضخمة البيضاوية ذات الأعمدة المنحوتة .

جانب من الأعمدة الضخمة التي تحيط بالشارع الرئيسي لمدينة جرش الأثرية . ويرجع عهدها الى آلاف السنين .

وأول ما يطالعه القادم من عمان الى جرش ، قوس نصر ثلاثيا ، بني حوالي سنة ١٢٩ ميلادية كذكرى لزيارة الامبراطور « هدريان » . ثم قاعة الشعب ، بشكلها البيضاوي الفريد المحاطة بالأعمدة المنحوتة . فالشارع الرئيسي ، ويليه مباشرة العمود الوحيد الذي يشير الى موقع هيكل « زفس » الروماني .

ومن الآثار المهمة التي تشملها خرائب جرش ، والتي تدعو الى الاعجاب ، المسرح الجنوبي المجاور ، الذي يتسع لأكثر من ٤٠٠٠ متفرج ، والمجهز بوسائل سمعية جيدة .

أما الشارع الرئيسي فهو — مثل قاعة الشعب — مرصوف بالبلاط الحجري الكبير ، ومحاط كذلك بحوالي ١٠٠ عمود ، بعضها مشاد على الطراز الأيوني ، والبعض الآخر على الطراز الكورنثيني . وعلى سطح هذا الشارع ، تبدو آثار عجلات العربات واضحة جلية . وعلى مقربة منه يشاهد الزائر عددا من الهياكل الدينية الأثرية ، ثم يشاهد بعد ذلك المدخل الجنوبي المثلث ، وما يسمى بمسبح العذارى ، وهو بركة ذات نافورة مزخرفة ، والمدخل الذي يفضي الى هيكل « آرتميس » الذي يعد من أهم آثار جرش ، والذي يقوم على منصة رحبة تبلغ مساحة سطحها ١٦٠ مترا × ١٢٥ مترا وترتفع عن الأرض بضع درجات فسيحة ، ويمتد على منصة أخرى تبلغ مساحة سطحها نحو ٤٠ مترا × ٢٢ مترا . وللهيكل أعمدة فخمة رائعة ، ما زال بعضها قائما حتى الآن ، ويبلغ ارتفاع الواحد منها نحو ١٧ مترا .

كما يشاهد الزائر هناك خرائب أخرى تتمثل في المدخل الشمالي المثلث الذي كان مخصصا « لجوليا دومنا » زوجة الامبراطور « سيمتوس سفيروس » ، وبقايا مسرح جرش الثاني ، والمسرح الشمالي ، والحمامات الغربية الطراز .

هذه هي الآثار الرئيسية في جرش التي يرد معظمها الى أصل روماني . وتوجد ثمة آثار أخرى ربما شيدت أو أعيد ترميمها على أيدي أولئك الذين جاءوا الى جرش بعد الرومان ، الأمر الذي يبعث على التساؤل : هل كان لدى الرومان عمال فنيون أكثر مهارة وقدرة من غيرهم ؟ أو انهم كانوا يستعملون مواد بناء أفضل من غيرهم ؟ أو أنهم كانوا يملكون غير ذلك من الأسباب عجز غيرهم ممن سبقوهم أو جاءوا بعدهم عن محاكاتها أو تحسينها ؟.

اعداد : فريال محمود قطان
عن مجلة « أرامكو ورلد »

قاعة الشعب البيضاوية الشكل بأعمدتها المنحوتة ، وهي من أروع الآثار التاريخية في جرش .

المسرح الجنوبي ، وهو من أهم الآثار التي تشملها خرش جرائب ، ويتسع لأكثر من ٤٠٠٠ شخص .

خرائب جرش